



**الباي محمد بن عثمان الكبير: الشخصية الجهادية والعلمية
والسياسية**

**The Bey Muhammad bin Uthman al-Kabir: The Jihadist,
Scientific and Political Personality**

إعداد

**مجاهدي إبراهيم
Medjahdi Brahim**

طالب دكتوراه، مخبر التراث الأثري وتثمينه، جامعة تلمسان

Doi: 10.21608/kjao.2024.346268

استلام البحث ٢٠٢٣ / ١٢ / ٩

قبول البحث ٢٠٢٤ / ١ / ٤

إبراهيم، مجاهدي (٢٠٢٤). الباي محمد بن عثمان الكبير: الشخصية الجهادية والعلمية والسياسية، *المجلة العربية لعلوم السياحة والضيافة والآثار*، المؤسسة العربية للتربية والعلوم والآداب، مصر، ٥ (٨) مارس، ٥٥ - ٧٦.

<http://kjao.journals.ekb.eg>

الباي محمد بن عثمان الكبير: الشخصية الجهادية والعلمية والسياسية
المستخلص:

كثيرا ما وصفت الجزائر خلال التواجد العثماني بها بالجمود الحضاري والفكري، وأنها دولة عسكرية ودار جهاد مثلما أشار إليه الرحالة توماس شو حينما أوضح الطابع الحربي العسكري للدولة و إهمالها للجانب الفكري على حدّ قوله، ورغم هذا كله إلا أنها شهدت عددا كبيرا من المبادرات الفكرية والتأليفية، اعتبرت مساهمات لإثراء الحياة الثقافية والعلمية داخل إطار عدد من المؤسسات التعليمية كالزوايا والمدارس والكتاتيب، والتي أنشئت في مدن وحوضر لا طالما اشتهرت بصيت وازدهار ثقافيين وافرين كجاية وتلمسان ومازونة وقسنطينة ومعسكر، ممّا مهّد لبروز شخصيات اتّصفت بالعلم والورع والجهاد والسياسة، ومن هذه الشخصيات اخترنا الباي محمد بن عثمان الكبير موضوعا لبحثنا.

الكلمات المفتاحية: الباي محمد بن عثمان؛ المنجزات العمرانية؛ الإنجازات السياسية والثقافية.

ABSTRACT :

During the Ottoman presence, Algeria was often described as a cultural and intellectual stagnation, and that it was a military state and a place of jihad, as indicated by the traveler Thomas Shaw when he explained the warlike, military nature of the state and its neglect of the intellectual side, as he said. Despite all this, it witnessed a large number of intellectual and authorial initiatives. Contributions were considered to enrich the cultural and scientific life within the framework of a number of educational institutions, such as corners, schools, and schools, which were established in cities and metropolises that have always been famous for their abundant cultural reputation and prosperity, such as Bejaia, Tlemcen, Mazouneh, Constantine, and Mascara, which paved the way for the emergence of personalities who were characterized by science, piety, jihad, and politics. Among these personalities, we chose the Bey Muhammad. Bin Othman Al-Kabir is the subject of our research.

Keywords: Bey Muhammad bin Othman; urban achievements; Political and cultural achievements.

مقدمة:

شهدت إيالة الجزائر أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ازدهارا وانتعاشا للحياة الفكرية والثقافية، على خلفية تولي الحكم من طرف شخصيات أعطت العلم أهمية بالغة، وترجمته من خلال إنشاء المدارس والمساجد وتقريب العلماء والإنفاق عليهم، ولعلّ من أهم هؤلاء نذكر محمد بن عثمان الكبير باي الغرب الجزائري الذي قرّب إليه عدّة علماء وفقهاء من أمثال عبد القادر المشرفي والشيخ أبو رأس الناصري وغيرهما، كما يرجع إليه الفضل في تأسيس عدد من المنشآت التعليمية كالمساجد والمدارس الباقية إلى يومنا هذا.

أمّا عن شخصية موضوعنا الباي محمد بن عثمان الكبير فيعتبر أحد مشاهير الغرب الجزائري خلال العهد العثماني، كيف لا وهو الذي قام بتغيير الوجه العام العلمي والثقافي والحضاري لعديد المدن والوادي بأغلب نواحي بابلك الغرب الجزائري، كما تحسّنت معه الظروف فأخذ على عاتقه تحرير وهران من قبضة الصليبيين الأسباب ورأى أن السبيل الأوحده هو تقريب العلماء واستشارتهم والإغداق عليهم.

أ. إشكالية الدراسة وتساؤلاتها: مقابل كل ما ذكر سابقا، كان ولا بدّ لنا من تسليط الضوء على واحد من أهم المجاهدين والقادة العسكريين والسياسيين الجزائريين خلال العهد العثماني، اشتهر بكثرة منشآته المعمارية وجهاده ونشاطه العلمي، من هنا أتت هذه الورقة البحثية لتميط اللثام عن هذه الشخصية الكبيرة التي ذاع صيتها في الآفاق حتّى وصف صاحبها بالكبير، وتجيب على إشكالية رئيسية مفادها: فيما تمثّل تأثير وتأثر شخصية الباي محمد بن عثمان الكبير في مجتمعه كواحد من القادة العسكريين والسياسيين المبادرين إلى تقديم إسهامات معمارية وعمرانية وثقافية وعلمية هادفة؟

وبهدف الإجابة على هذه الإشكالية ارتأيت طرح مجموعة من التساؤلات المتفرّعة عنها:

- من هو الباي محمد بن عثمان؟

- كيف تولّى حكم البابلك؟

- ما هي أهمّ منجزاته الحضارية والعمرانية وإنجازاته الثقافية والسياسية؟

ب. أهمية الدراسة: تكمن أهمية هذه الدراسة في كونها تعالج دور أحد القادة العسكريين والسياسيين الجزائريين خلال العهد العثماني، وإبراز أهم منجزاته وإنجازاته، كما ترجع أهمية هذه الدراسة أيضا إلى إثبات أنّ الجزائر في العهد العثماني كما كانت فعلا دارا للجهاد، فإنّها كانت كذلك مركزا للعلم.

وانطلاقا من هذه الأسس فإن دراستنا قسمت إلى خمسة (٤) محاور رئيسية، تحدّثنا في العنصر الأوّل عن مولد الباي محمد بن عثمان ونشأته، ثمّ مررنا للحديث عن مولد توليته الحكم، وصولا إلى منجزاته المعمارية والعمرانية والحضارية، وفي

الأخير تطرّقنا للحديث عن إنجازاته السياسية والثقافية ومواقفه من قضايا عهده لاسيّما تحريره لمدينة وهران سنة ١٧٩٢م.

١. **مولده وحياته وتكوينه العلمي:** إن التكوين القاعدي لأي شخصية وخلفتها العائلية أو القبلية خلال العهد العثماني لعبت دورا كبيرا في تحديد العديد من الرّعامات السياسية التي اعتمدها الحكام العثمانيون بالجزائر، وما محمّد الكبير إلّا واحد من هؤلاء الرّعامات التي ساهم تكوينها العلمي وسير حياته في تعيينه بابا على الغرب الجزائري.

١.١. **مولد وحياة الباي محمّد بن عثمان الكبير:** لقد تناولت العديد من المصادر والمراجع حياة الباي محمّد بن عثمان الكبير، وهذا نظرا لما ساهمت به هذه الشّخصية في نشر العلم والمعرفة ببابيك الغرب الجزائري ووقوفه على إنشاء وبناء العديد من المرافق والمنشآت.

أ.مولده ونسبه: ولد محمّد بن عثمان الكردي بمدينة مليانة وقد أشار ابن سحنون الراشدي في كتابه الثغر الجماني إلى ذلك بقوله: "... الكردي نسبا ثم لملياني مولدا ثم المعسكري منشأ..."^١ وكان يُلقب بالأكل^٢ في الناحية التي كان يقطن بها (الجهة الغربية)، أبوه هو أبو إسحاق الحاج عثمان بن إبراهيم الكردي^٣ الذي كان خليفة على مليانة ثم أصبح بابا على بابلك التيطري، وأمه جارية اسمها زائدة أهداها المولى إسماعيل سلطان المغرب الأقصى^٤، ورغم أنّنا لا يمكننا تحديد ولادته بدقة إلّا أنّ الكاردينال تيدنا (Thednat) قدّر عمر الباي محمّد عند لقائه به في القصر عام ١٧٧٩^٥ بين الأربعين والخمسين سنة أي أنّه يكون مولودا ما بين ١٧٣٩/١٧٣٤م^٦.

^١ ابن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تح: البوعبدلي المهدي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠١٣م، ص١٢٨.

^٢ الأكل: لقب أطلق عليه منذ صغره نظرا لسمرته. انظر: أحمد ابن هطال التلمساني، رحلة محمّد الكبير باي الغرب إلى الجنوب الصحراوي ١٧٨٥، تق: محمّد عبد الكريم، المؤسسة العربية للدراسات النشر، ص١٥.

^٣ الكرديون: هم قوم صلاح الدين الأيوبي، وقيل أنهم من بقية طعم الملك بيوراسف وذلك كان يأمر أن يذبح له إنسانا ويتخذ طعاما من لحومهم وقيل أنهم من نسل سليمان عليه السلام لما سلب ملكه، للمزيد انظر: ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص١٢٧.

^٤ أحمد ابن هطال التلمساني، المصدر السابق، ص١٥.

^٥ تيدنا Thednat: أسير فرنسي ولد سنة ١٧٥٨ في أوزيس من عائلة كاثوليكية ميسورة الحال مارس مهنة التجارة البحر، وأثناء رحلة له كانت من ملقا إلى مرسيليا على متن سفينة اسبانية وقع في الأسر من قبل العثمانيين ومن حسن حظه اشتراه باي معسكر وبقي عنده مدة ثلاث سنوات شغل خلالها كاتباً ثم خزنّدال وكتب مذكرته التي تحدث فيها عن مغامراته

ب. نشأته: نشأ الباي محمد الكبير في البلاط العثماني، وهذا راجع لتولي أبيه أبو إسحاق الحاج عثمان ابن إبراهيم الكردي بايا على بابلك التيطري^٧، حيث تربى تحت كفالة أبيه الحاج عثمان الذي كان بايا على بابلك التيطري وكان محترما لدى الأتراك ومفضلا على سائر البايات، وذلك لأن التيطري أول ناحية خضعت للأتراك بعد مدينه الجزائر^٨.

وبعد وفاة هذا الأخير ترك أمرهم إلى صديقه الباي إبراهيم والذي كان بالنسبة لأبي إسحاق بمثابة الأخ وكان هذا الأخير قائد على مليانة، حيث تعهد بان يكفل عائله صديقه سواء في المدية أو معسكر إثر تعيينه بايا على الغرب^٩، وصار محمد الأكبر هو المحبوب عند الباي وازداد قربه إليه بمصاهرته حيث زوجه ابنته فاطمة حتى بلغ به إشراكه في أمور الحكم ولم يكتفي بهذا الحد حتى ولاه على جميع الشؤون وقائدا لقبيلة فليقة ثم رفاه سنة ١٧٦٨م إلى منصب خليفة له^{١٠}.

لقد اختلف عدة مؤرخين بشأن تاريخ وفاة الباي محمد الكبير حيث نجد عند الأغا ابن عودة المزارعي تاريخ وفاته عام ١٢١٣هـ/١٧٩٩م بعدما حكم عشرين سنة^{١١}، والبعض الآخر مثل نور الدين بن عبد القادر وأحمد توفيق المدني حدّدوه بسنة ١٢١١هـ/١٧٩٦م^{١٢}.

داخل القصر، انظر: أحميدة عميراي، قضايا مختصرة في تاريخ الجزائر الحديث، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، ٢٠٠٥م.

^٦ بلبروات عتو، الباي محمد الكبير باي وهران ١٧٧٩/١٧٩٧: حياته وسيرته، مجلة عصور، مج ٠٢، ع ٠٣، جوان ٢٠٠٣م، ص ١٥٨.

^٧ أحمد ابن هطال التلمساني، المصدر السابق، ص ١٥.

^٨ عتو بلبروات، المرجع السابق، ص ١٥.

^٩ محمد بن يوسف الزيناني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تح: البوعبدلي المهدي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ٢٠١٣م.

^{١٠} أحمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا داي الجزائر ١٧٦٦/١٧٩١: سيرته وحروبه وأعماله ونظام الدولة والحياة العامة في عهده، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٦م، ص ١٤٠.

^{١١} الأغا ابن عودة المزارعي، سعد السعود في أخبار وهران والجزائر واسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تح: يحي بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج ٠١، ص ٢٩٧.

^{١٢} حبيبة بوشارب، محمد الكبير باي الغرب الجزائري (١١٩٣-١٢١١هـ/١٧٧٩-١٧٩٧م)، مذكرة مقدمة لإتمام متطلبات الحصول على شهادة الماستر في التاريخ الجزائر الحديث، قسم التاريخ، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية، جامعة المسيلة، ٢٠١٩م، ص ٤٣.

أما فيما يتعلق بمكان وفاته فيذكر أحمد الشريف الزهار أن الباي محمد الكبير توفي وهو راجع إلى مدينة وهران بعد أن أدى الدّوش وأكمل ثمانية أيام لدى حضرة الداوي حسن باشا فلما وصل إلى قبيلة السانح بن خضرة كبير أولاد قصير قرب قرية مزومة توفي هناك^{١٣}، وقد قيل عن موته بأنّ حسن باشا هو من بعث إليه وأشربه سمًا، وكذلك قيل أنه مات فجأة من غير مرض^{١٤}.

دفن الباي محمد الكبير بمدرسة خنق النطاح بوهران وتولى بعده الحكم أكبر أولاده عثمان بن محمد^{١٥}.

١.٢. التكوين العلمي للباي محمد بن عثمان الكبير: تعتبر شخصية محمد من الشخصيات التي اهتمت بالثقافة على عكس العثمانيين الآخرين حسبما أشار إلى ذلك الأستاذ أبو القاسم سعد الله قائلا: "...إلا أنّ هذه الشخصية تعد من الشخصيات القليلة التي كانت تملك رصيда ثقافيا لا بأس به"^{١٦}.

أ. تكوينه العلمي: لا نصادف مؤرخا جزائريا أو أجنبيا ينفي غزاره علم الباي محمد الكبير، فلقد اهتمّ أبوه عثمان الكردي وبعده الباي إبراهيم بتكوينه وسائر أفراد عائلته في المديّة ثم معسكر^{١٧}، وهذا ما يفسر اعتناؤه بالعلماء وتشبيده للمدارس ومستواه العلمي والثقافي بمخالطته لعلماء عصره أمثال ابن هطال التلمساني وابن سحنون الراشدي وأبي رأس الناصري، كما يذكر الأسير تيدنا أن الباي لم يكن من الشخصيات العادية بل كان من الطبقة المثقفة وتبين هذا له من خلال محاورته وتبادل الأحاديث معه، إضافة إلى إتقانه للغات الأخرى مثل اللغة الفرنسية والإيطالية^{١٨}.

^{١٣} تولى حسن باشا الحكم بعد محمد عثمان باشا عام ١٧٩١م، وتقلد عدة وظائف مدنية وعسكرية حيث كان قائدا للجيش الجزائري، كما تولى منصب وكيل الخرج، ثم أمانة مالية الدولة (الخزناجي)، ينظر: عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، دار الأمة للطباعة والنشر، الجزائر، ٢٠١١م، ج ٣، ص ٢٦٧.

^{١٤} أحمد الشريف الزهار، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشرف الجزائر، تر: أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للتوزيع، الجزائر، ١٩٧٤م، ص ٦٣.

^{١٥} صبرينة أمير وحورية زاير، المشروع الجهادي للباي محمد الكبير في تحرير وهران ١٧٩٢م، مذكورة مقدمة لإتمام متطلبات الحصول على شهادة الماستر في التاريخ الجزائر الحديث، قسم التاريخ، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية، جامعة البويرة، ٢٠١٩م، ص ٣٩.

^{١٦} أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨م، ج ١، ص ٣١٤.

^{١٧} عتو بلبروات، المرجع السابق، ص ١٦.

^{١٨} عميراوي أحميدة، الجزائر في الأدبيات الرحالة والأسر من خلال العهد العثماني: مذكرات الأسير تيدنا، دار الهدى، الجزائر، ٢٠٠٣م، ص ٥٤- ٥٥.

واهتمامه بالشعر والأدب والطب والمخططات العسكرية واشتغاله في الإدارة، كما أنّ أدائه لفريضة الحج سمح له بالاختلاط مع الفقهاء والعلماء المسلمين.

ب. تدريبه على الفروسية: تلقى الباي محمد الكبير تكوينا في الفروسية، وظهرت خبرته في امتلاك الخيول العتيقة وركوبها، وكان صيدا ماهرا ولذلك نجده مولعا بتربية الصقور، وقال ابن هطال في الرحلة: "اجتمع عنده من الطيور الحسان المختلفة الأشكال والألوان ما لم يجتمع عند غيره من الملوك" وكان يخرج للصيد بنفسه ولا يصطحب معه الكلاب لأنّ غرضه هو امتلاك طرائق مطاردة العدو الأسباني والقبائل العاصية.

٢. توليه حكم بايلك الغرب الجزائري: لقد كان للماضي المشرف الخاص بمحمد بن عثمان الأثر الكبير في بلوغه مرتبة الباي، حيث لم يتوانى الدّاي في تعيينه بايا على الإيالة الغربية منذ أواخر القرن ١٨م بعد تدرّجه في عدد من المناصب السياسية ودرجات الحكم.

٢.١. تدرجه في المناصب السياسية قبل تعيينه بايا على الغرب الجزائري: نظرا لما كان يتمتع به الباي محمد الكبير من كفاءة وحكمة وقدرة على تسيير الأمور في مختلف المجالات السياسية العسكرية وحتى الدينية ظلّ يرتقي في المناصب.

أ. قيادة قبائل فليّة ١٧٦٥-١٧٦٩م: بعد تعيين إبراهيم بايا للغرب وهو الذي كفل عائلته بعد وفاة أبيه، وبعدما أظهر محمد بن عثمان نجابته تمّ تعيينه قائدا على قبائل فليّة سنة ١٧٦٥م بزمورة ناحية غليزان^{١٩}، وكانت هذه الأخيرة من القبائل القوية ذات الأصل العربي المشهورة تاريخيا وقد أشار إليها ابن سحنون الراشدي في كتابه الثغر الجمانى قائلا: "...كانت فليّة القبيلة المشهورة التي لا تحومها النسور ولا يمر فيها من غير الأيام المحلة إلا قتل أو أسير يقطعون السبيل ويجزعون من عزاهم..."^{٢٠}. ما يلاحظ من خلال قول الراشدي هو أنّ هذه القبائل ليس من السهل قيادتها أو إخضاعها لنظام الحكم إلا أنّ بن عثمان استطاع إخضاعها وإجبارها على طاعته وألحقها بنظام البايلك.

شارك محمد الكبير في الدفاع عن مدينه الجزائر وأبدى شجاعته وبسالته فشكره عثمان باشا وطلب من الرعية أن يعينوه مكان الباي إبراهيم بعد وفاته، إلا أن الحاج خليل عيّن على رأس معسكر قبل حملة أورلي بقليل وهي التي شارك فيها محمد الكبير بالنيابة عن الباي الخليل^{٢١}.

^{١٩} عتو بلبروات، المرجع السابق، ص ١٥٨.

^{٢٠} أحمد ابن هطال التلمساني، المصدر السابق، ص ١٦.

^{٢١} صالح عباد، المرجع السابق، ص ١٧٤.

ب. خلافة الباي محمد الكبير للباي إبراهيم ١٧٦٩/١٧٧٩م: عندما رأى الباي إبراهيم أن محمد الكبير قد قام بواجبه على أحسن وجه وأظهر براعته في القيادة وحسن التسيير عيّنه خليفة له سنة ١٧٨٢/١٧٦٩م، وبعد مدة قليلة أشركه في جميع حكمه ومنحه إدارة جميع الناحية الشرقية لبابلك الغرب^{٢٢}، وبهذه الصفة حارب قبيلة أولاد شريف وأخضعها^{٢٣} حتى صار يمدح من قبل السلطة الحاكمة في ديوانهم في قول ابن سحنون الراشدي: "...وسلطان الجزائر يفتخر به في ناديه ويهدد به أعاديته وأسيره يبتهج ابتهاجا والملك بعده لمفرقه تاجا والرعية حامية لسيرته الواسعة الإحسان تلمع من أسارير سريره ومآثر تخطب الارتفاع وتطلب له أكبر الرتب ليعمر به الانتفاع"^{٢٤}.

وفي أيام خلافته تعرضت الجزائر إلى حملة أوروبية إسبانية بقيادة أورلي عام ١٧٧٥م انطلقت من إسبانيا، وكم كانت دهشة الأسبان عظيمة لما شاهدوا شواطئ العاصمة محصنة بالمدافع وفي الوقت الذي كانت تتضاعف من حين إلى آخر كانت الإمدادات قادمة من كل مكان لذلك قررت القيادة الأسبانية الانسحاب^{٢٥}.

٢.٢. تعيين الباي محمد بن عثمان بايا على الغرب الجزائري ١٧٧٩/١٧٩٧م: بعد وفاة الباي إبراهيم طلب الرعية تعيين محمد الكبير بايا عليهم، إلا أنه حال بينهم وبين طلبهم ذلك تعيين الحاج خليل، وبعد وفاة هذا الأخير تمّ تعيين محمد الكبير بايا على الإيالة الغربية^{٢٦}، ويرجع الفضل في ذلك إلى دراية هذا الأخير بشؤون الإدارة خاصة بعدما نجح محمد بن عثمان في أداء المهام المخولة إليه سابقا وكذا مباشرة العديد من الإصلاحات الفكرية والثقافية والاقتصادية^{٢٧}.

وبعد تعيينه شرع في إصلاح شؤون الرعية والسهر على مصالح العباد وتنظيم البلاد فراح ينشر الأمن ويؤلف بين قلوب الناس^{٢٨}، وتصادفت فترة تعيينه بالمجاعة التي ضربت البلاد فواجهها وتصدى لها بجزم وفي عهده انتشر الطاعون كذلك وظل

^{٢٢} ابن هطال، المصدر السابق، ص ١٦.

^{٢٣} صالح عباد، المرجع السابق، ص ١٧٤.

^{٢٤} ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص-ص ١٣٤-١٣٥.

^{٢٥} مبارك ابن محمد الميلي، تاريخ الجزائر الحديث والقديم، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، ١٩٦٤، ج ٠٣، ص-ص ٢٣١-٢٣٢.

^{٢٦} ابن هطال التلمساني، المصدر السابق، ص ١٧.

^{٢٧} بصحراوي محمد وبوسوار مليكة، الباي محمد الكبير ودوره في بابلك الغرب الجزائري ١٧٧٩/١٧٩٧، مذكرة مقدمة لإتمام متطلبات الحصول على شهادة الماستر في التاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، قسم العلوم الإنسانية، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية، جامعة ابن خلدون، تيارت، ٢٠١٦م، ص ٤٥.

^{٢٨} ابن هطال التلمساني، المصدر السابق، ص ١٧.

متفشيا حوالي عشر سنوات حيث خلف هذا الوباء أمواتا وصل عددهم إلى الخمسمائة جنازة كل يوم، ولقد واجه محمد الكبير المجاعة بشراء القمح من أوروبا وتقسيمه على الرعية بالمجان وعفي عن الفلاحين من دفع الضريبة.^{٢٩}

٣. أهم المنجزات الحضارية والعمرانية: لا شك في أنّ العمران والعمارة هو المدلول المادي المتواتر عبر مختلف الفترات الزمنية، ولا يختلف اثنان في كون الباي محمد بن عثمان من أكثر الحكّام بناء وإنشاء ببائلك الغرب.

٣.١. المساهمة الثقافية والعلمية للباي محمد بن عثمان: ممّا يُقال في هذا المجال هو تلك المعطيات التاريخية المتواجدة في مختلف المصادر المتناولة لفترة حكم الباي محمد بن عثمان الكبير، والتي اتفقت في مجملها على اهتمام هذا الأخير بالمجالين الثقافي والعلمي.

أ. اهتمام الباي محمد الكبير بالعلماء: ساهم الباي محمد الكبير منذ توليه شؤون هذا الببايك في النهوض بالحياة الثقافية وجعلها من أولوياته فعمل على تقريب العلماء إلى مجالسه وديوانه في المناسبات والأعياد^{٣٠}، ولقد ذكر ابن سحنون هذا في قوله: "إن أهل الوظائف كالخطباء والأئمة والمؤذنين والمؤدبين كان يقدم لهم بعض الهدايا في كل الموسم أو المناسبات كالأعياد"^{٣١}، حيث قبل أن ينتقل محمد الكبير إلى وهران ليتخذ منها سكنا قام بجمع العلماء ليستشيرهم في شأن وهران التي كان بها أعوانا للأسباب^{٣٢}، وأيضا كان يوجههم ويرشدهم إلى المناصب فأحمد ابن هطال التلمساني قد شغل عدة مناصب سياسية وكان مستشارا للباي وكاتبه الخاص ومبعوثه في المهام الخارجية، والعلامة الطاهر بن حوا كان قاضيا معسكرو مثله عبد الله بن حواء الذي تم تعيينه مفتيا وقاضيا بمدينة معسكر^{٣٣}، كما قام هذا الباي بوضع المرتبات للعلماء والمدرسين يأخذونها من الأحباس بعد أن كان العلماء لا ينتفعون من ناحية المخزن بشيء إلا من كان متوليا لخطّة أو مستعملا في خدمة، فأتسع بذلك حال العلماء وانشرت صدور القراء وكثر طلبة العلم^{٣٤}.

^{٢٩} صالح عباد، المرجع السابق، ص ١٧٤.

^{٣٠} محمد الأمين شرويك، جهود محمد الكبير وصالح باي في تشجيع حركة الثقافة والتعليم في الجزائر العثمانية على ضوء المصادر المحلية والأجنبية، مجلة العلوم الإسلامية والحضارة، مج ٠٣، ع ٠٢٤، ٢٠١٨م، ص ٣٧٠.

^{٣١} ابن سحنون الراشدي، المصدر سابق، ص ١٥٢.

^{٣٢} محمد الأمين شرويك، المرجع سابق، ص ٥٧١.

^{٣٣} نفسه، ص ٥٧٢.

^{٣٤} نفسه، ص ٥٧٢.

ب. تشجيعه لحركة النسخ والتأليف: يعد الباي محمد الكبير من أشهر الحكّام الذين شجعوا حركة النسخ والاستنساخ، فقد شجع الطلبة وكتّابه على اختصار الكتب المطولة ونسخ بعض الكتب الأخرى له^{٣٥}.

ومن ذلك أنّ الباي قد أمر محمد بن رقية التلمساني بالكتابة عن حملة التي شنّها الباي والمسمّاة "حملة أورلي" سنة ١٧٧٥م، فتناولها هذا الكاتب في تأليف سمّاه: الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها الجنود الكفرة، حيث يقول ابن رقية أنه ألّف هذا الكتاب بطلب من الباي^{٣٦}، وكذلك من التأليف التي ألّفت نجد:

- كتاب عجائب الأسفار لمحمد أبي رأس الناصري المعسكري .

- كتاب الثغر الجماني لأحمد بن علي بن سحنون الراشدي.

- كتاب الرحلة القمرية في الأخبار المحمدية لمصطفى بن عبد الله بن زرقّة.

وغيرها، والملاحظ أنّ هذه التأليف تدلّ على ما يميّز به الباي من الإحسان المستمر^{٣٧}، وأمر الباي بن سحنون مؤلف الثغر الجماني بأن يختصر كتاب الأغاني في نحو ثمانين كراسة^{٣٨} فأثابه بمائة سلطاني ثم أمره بجمع قاموس فضمّمه فأثابه بخمسين سلطانيا^{٣٩}.

كذلك نجد تأليف كتاب عن غزوة محمد الكبير إلى جنوب الصحراوي لكتّابه أبو العباس الحاج أحمد بن محمد بن هطال التلمساني الذي كان مستشارا لمحمد الكبير في مهامه الحربية والعسكرية^{٤٠}.

ت. عناية محمد الكبير بالأوقاف: يعتبر الوقف من أهم مظاهر الحضارة الإسلامية، وهو يعبر عن إرادة الخير في الإنسان المسلم وعن إحساسه العميق بالتضامن مع المجتمع الإسلامي، ولهذا اتبعه كافة المسلمون منذ أوائل الإسلام وخاصة تطور في العهد العثماني نتيجة اعتبارات سياسية واقتصادية وقد كانت الجزائر من بين المناطق الإسلامية التي شملها هذا التطور^{٤١}.

يقوم الوقف بالعناية بالعلم والعلماء والفقراء والعجزة واليتامى وأبناء السبيل وكذلك يقوم بالعناية بالمساجد والمدارس والزوايا والأضرحة، فهو مصدر عيشهم

^{٣٥} أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج ٠١، ص ٢٩٢.

^{٣٦} محمد الأمين شرويك، المرجع السابق، ص ٥٧٢.

^{٣٧} ابن هطال التلمساني، المصدر السابق، ص ٢٦.

^{٣٨} أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص ٢٩٢.

^{٣٩} ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص ١٥٥.

^{٤٠} ابن هطال التلمساني، المصدر السابق، ص ١٣.

^{٤١} أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص ٢٢٧.

ودور هام في التضامن فئات المجتمع وترابط بعضهم البعض^{٤٢}، كما اهتم الباي محمد الكبير بهذا الجانب بتمويل مؤسسات الأوقاف وتشجيع المدرسين والطلبة وقد ذكر ابن سحنون الراشدي: "أنه رتب المدرسين في الجوامع بوظائف يأخذونها من الأحماس بعد أن كان العلماء لا ينتفعون من ناحية المخزن بشيء..."، كما أيضا إلى حال العلماء بقوله: "فاتسعت بذلك حال العلماء وانشرت الصدور للقراءة وشرعت لها النفوس، وكثر طلبة العلم...."^{٤٣}.

واهتم الباي محمد الكبير بإنشاء الفنادق وتوفير المياه وزاده في الأحماس مثل الجامع الأكبر وكذلك توظيف المدرسين ووفر لهم أجورهم عن طريق الأحماس وتعتبر كل من مدينة تلمسان والجزائر ومستغانم شهدت هذه الأوقاف^{٤٤}.

ث. إحياء الرابطات الطلابية: اهتم الباي محمد الكبير بإحياء الرابطات الطلابية، فهذه الأخيرة قدّمت دورا جديدا في العمليات الجهادية ضد الأسبان، وذلك من خلال تعبئة الناس والنشر ثقافة الجهاد وإحياء وتشجيع طلب العلم خاصة وأن الباي محمد الكبير كان يشرف بنفسه على سير هذه الرابطات، وبحث على الانضمام إليها بشتى الوسائل كتشجيع الطلبة ماديا ومعنويا^{٤٥}.

٣.٢. العمارة والعمران في عهد الباي محمد بن عثمان الكبير: ارتبطت العديد من المنشآت المعمارية بمختلف حواضر بايلك الغرب الجزائري بناء وإنشاء وترميمها ودعمها ومساهمة بالباي محمد بن عثمان الكبير، فبمعسكر رّم الجامع الكبير وأعاد بناءه وابتنى مسجد عين البيضاء والمدرسة المحمدية المجاورة له وحمامه هناك، وأنشأ قصرا للحكم بوهران زيادة على مسجديه هناك جامع الباي محمد بن عثمان وجامع الباشا، إضافة إلى مدرسته التي دفن فيها بخنق النّطاح، ورّم ضريح سيدي بومدين بتلمسان ومدرسته، وابتنى ضريح ومسجد سيدي قندوز بالغزوات، وأقام مشهد سيدي أحمد بن عودة بغليزان ومثل ذلك فعل مع سيدي بهلول المجاجي قرب تنس.

أ. جامع الباشا: شيده الباي محمد الكبير بأمر من حسن الباشا، حيث يتميز هذا الأخير بمنارة مرتفعة ويحتوي على مدخل جميل من أجمل الأعمال المعمارية، كما يحتوي هذا المدخل على زخارف كتابية بالخط الكوفي وزخارف نباتية متمثلة في المراوح النخيلية بالإضافة إلى التناسق بين الخطوط والانحناءات والزوايا، ويحتوي

^{٤٢} نفسه، ص ٢٣٠.

^{٤٣} ابن سحنون الراشدي، المصدر سابق، ص ١٤٣.

^{٤٤} ابن سحنون الراشدي، نفسه، ص ١٤١.

^{٤٥} محمد مقصودة، الكراغلة والسلطة في الجزائر خلال العهد العثماني ١٥١٩م-١٨٣٠م، رسالة مقدمة لإتمام متطلبات الحصول على شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة وهران، ٢٠١٤م، ص ١٨٦.

أيضا على آية قرآنية^{٤٦}، وبني خلال الفتح الأخير سنة ١٢٠٧/١٧٩٢م^{٤٧}، وذلك بأمر من حسن باشا داي الجزائر ببناؤه وتحمل نفقات البناء^{٤٨}، أكد هذا محمد الزباني في قوله: "...وبنى الجامع الأعظم المغزو للباش الحسن وكل ما صرفه عليه هذا الأمير فمن عند الباش"^{٤٩}، حيث أرسل الداوي للباي صندوقين مملوءين واحدا بعد واحد ليصرفها على البناء، وبعث أمير البنائين محمد الشيشاني بن بيرت، ولما شرع في بنائه حفر أساسه في البستان تحت البرج الأحمر وجمع لمنارته حجرا ضخما أتى به من برج الصباحية في أربعة أيام متتالية وكل ما صرفه الباي محمد الكبير على الجامع فهو مقيد في دفاتره^{٥٠}.

ب. مدرسة خنق النطاح: أنشأها الباي محمد الكبير ابن عثمان بعد فتح وهران للمرة الثانية والأخيرة، فشيده في سنة ١٢٠٧/١٧٩٢م حسب ما هو مذكور في اللوحة التذكارية بالمنذنة الجنوبية^{٥١}، وقبل أن يكون مسجدا كان عبارة عن مدرسة ثم حوله الباي إلى مسجد وأصبحت تسمى بمسجد الباي محمد الكبير حيث كانت تؤوي هذه المدرسة الطلبة والمجاهدين المرابطين ضد الأسبان، وبعد أن فتح الفتح الثاني انتقل إليها الباي محمد الكبير مع أسرته فأصبحت عبارة عن مسجد خاص بأسرة هذا الباي^{٥٢}، وكان ذلك هروبا من الوباء الذي ضرب البلاد، ويتكون من مدخل بسيط وفتحة في الجدار الجنوبي بالولوج مباشرة إلى قاعدة الصلاة المستطيلة حيث تتركز الأعمدة التي يتركز عليها السقف وفي الجدار الشرقي عبر المدخل يمكن الدخول إلى قاعة مربعة وصغيرة وفي جانب هذه القاعة نجد غرفتان صغيرتان تؤديان إلى الجنوب من المسجد والمنذنة حيث تتميز بالزخارف المعمارية ومساحات متراكمة مع بعضها البعض تشغلها حنفيات بشكل بوائك العقود تتخللها فتحات بسيطة^{٥٣}.

^{٤٦} خيرة بن بلة، المنشآت الدينية بالجزائر خلال العهد العثماني، أطروحة مقدمة لإتمام متطلبات الحصول على درجة الدكتوراه في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، الجزائر، ٢٠٠٨م، ص ٨٩.

^{٤٧} مبروك مهريس، المساجد العثمانية بوهران ومعسكر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ٢٠٠٩م، ص ٣٧.

^{٤٨} ابن هطال التلمساني، المصدر السابق، ص ٢٩.

^{٤٩} محمد الزباني، المصدر السابق، ص ٢٦٧.

^{٥٠} ابن عودة المزاري، المصدر السابق، ص ٢٩٥.

^{٥١} مبروك مهريس، المرجع السابق، ص ٣٩.

^{٥٢} خيرة بن بلة، المرجع السابق، ص ١٢٨.

^{٥٣} توامة نعناعة، عمارة المساجد العثمانية في بايلك الغرب بين استمرار الطرز المحلية ومظاهر الانفتاح على الطرز الوافدة، ٢٠١٩، مجلة قبس للدراسات الإنسانية والاجتماعية، مج ٠٣، ع ٠١٩، ٢٠١٩م، ص ١٣٠.

ت. ترميم المسجد العتيق: عرفت المساجد بالغرب الجزائري خلال الفترة العثمانية بتشابه مخططاتها وعناصرها المعمارية، خاصة تلك القريبة من الحصون والرابطات الجهادية من حيث الهندسة ونمط المآذن وطريقة البناء التي غلب عليها الطابع الفني الأندلسي^{٥٤}، أما عن المسجد العتيق بمعسكر فيعود بنائه إلى الباي عصمان أو عثمان، ثم جدّه الباي محمد الكبير ووّسعه وأبدل منبره وأجرى له الماء وجعل بقربه خمس أحواض للوضوء فقد سنة ١٢٠٥هـ/١٧٩٧م، وهو المعروف بمسجد سيدي حسان أو مسجد المبايعه.

ث. الجامع الأعظم بمعسكر: اشتهر خلال العهد العثماني في الجزائر وجود منارات دينية وعلمية في كل حاضرة من حواضر الجزائر، ومن هنا فقد ابتدئ الباي محمد الكبير الجامع الأعظم بمعسكر والذي لعب دورا هاما في الحركة الثقافية، بُني هذا المسجد في ذي القعدة ١١٩٥هـ الموافق لنوفمبر ١٧٨١م، وزيادة على هذا فقد شيده الباي من ماله الخاص، حيث واجهته مجموعة من الصعوبات والعراقيل وقت تشييده منها تلك الصبغة التي أثرت على المشاركين في عملية البناء، إلا أن ذلك لم يؤثر على الباي في مواصلة البناء بإعلانه بأن كل من لم يجد قوت يومه يتقدم للمشاركة في عملية البناء بأجرة معلومة يستعين بها على توفير قوته، في محاولة من الباي لصدّ وتحطيم جميع العوامل التي حاولت عرقلة مشروعه الحضاري بمعسكر^{٥٥}.

ج. المدرسة المحمدية: سميت بهذا الاسم نسبة إلى مؤسسها الباي محمد الكبير وتبركا بالنبي محمد ﷺ، واسمها الحقيقي المدرسة الحايطة، وتعتبر المدرسة المحمدية من أهم المدارس التي أسسها الباي محمد الكبير في الغرب الجزائري لما كان لها صدى واسع في العالم العربي والإسلامي، حيث اعتبرت أكبر معهد علمي يضم الأساتذة الأكفاء المتفرغين لمهنة التعليم لا غير، إذ تمكن محمد الكبير بفضل تلك المدرسة أن يجعل من مدينة معسكر عاصمة علمية كبيرة كما قال أبو رأس الناصر: "إن المدرسة المتعارف عندنا هي التي تبنى لدراسة العلم كالمدرسة البوعنانية بفاس والمدرسة المستنصرية والبياشية بتونس والقشاشية بالجزائر"^{٥٦}، وكانت المدرسة ملحقة المسجد الأعظم وأضاف لها مكتبة زودها بالكتب، وتحولت المدرسة إلى الرباط أثناء الفتح إذ خرج علمائها وطلبتها بأمر من الباي.

٤. أهم إنجازاته السياسية والعسكرية: إن القيادة أو منصب الحكم الممنوح للباي محمد بن عثمان الكبير لا شكّ وأنّه يمنحه الكثير من السّلطة في المجال السّياسي ومزيّد

^{٥٤} بصحراوي محمد وبوسوار مليكة، المرجع السابق، ص-ص ٩٦-٩٧.

^{٥٥} قدور بوجلال، المنشآت التعليمية بمعسكر في عهد الباي محمد بن عثمان الكبير، مجلة دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج ١٧، ٢٠١٧م، ص-ص ٢٣٩-٢٤٤.

^{٥٦} نفسه، ص ٢٤٩.

من القوة والدعم في المجال العسكري، وهو الأمر الذي نتج عنه العديد من الإصلاحات والمشاريع السياسية والعسكرية.

٤.١. **انجازاته السياسية:** عرف محمد الكبير بالترقي في المناصب من قائد على فليقة بزمورة ناحية غليزان (١٧٦٥-١٧٦٩م) إلى خليفة للباي إبراهيم في القطاع الشرقي وقاعدته مليانة^{٥٧}، حيث عين خليفة للباي وذلك لحسن التسيير والحكم وبعد فترة أشركه معه في أعمال الإدارة ومنحه التسيير الشؤون الناحية الشرقية من الإيالة الغربية^{٥٨}، وبهذه الصفة حارب أولاد شريف^{٥٩} وفي سنة ١١١٩هـ تحرك الأسبان لغزو الجزائر بأسطول عظيم تحت قيادة أورلي، فشارك محمد الكبير في الدفاع عن الجزائر بجيشه الباسل وأبدى في المعركة شجاعة الكبيرة وأذاق الجيوش الأسبانية مرارة فشكره الداوي محمد عثمان باشا شكرا جزيلا وأثنى عليه الناس أجمعون^{٦٠}.

ولما توفي إبراهيم باي سنة ١١٨٩/١٧٧٥م طلبت الرعية من الداوي أن يعين مكانه محمد الكبير بايا على الإيالة الغربية وكاد الداوي ينفذ رغبة الرعية لولا تعرض أحد الأغنياء -الحاج خليل- لابتياح هذا المنصب من الداوي بثمن باهض وضع في خزانة مال الدولة حسب ما جرت به العادة آنذاك، وهكذا بقي محمد الكبير يشغل منصب خليفة مترقبا فرصة متاحة فيرتقي إلى مرتبة باي.

اجتمعت الطائفة الدرقاوية بموضع يقال له عين الحوت قرب عين تموشنت وقررت الخروج عن دولة الأتراك وفي تلك أثناء فجأة توفي الباي دون أن يعرف سبب لوفاته، فاستجاب الداوي لرغبة الرعية وعين محمد الكبير بايا على الإيالة الغربية للجزائر^{٦١} وكان هذا الاختيار يعود لعدة اعتبارات منها:

- شجاعته ومواقفه الحازمة.
- إقدامه على العلم والفروسية.
- أخلاقه الفاضلة.

^{٥٧} مليانة: تقع غرب الدائرة التي تسمى باسمها وهي دائرة مليانة، لها جو معتدل وتجري فيها مياه كثيرة وعذبة، للمزيد ينظر: عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ المدن الثلاث (الجزائر- المدينة-مليانة)، ط١، شركة دار الأمة، الجزائر، ٢٠٠٧م، ص٢٨٩.

^{٥٨} أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص١٤٠.

^{٥٩} صالح عباد، المرجع سابق، ص١٧٤.

^{٦٠} أحمد ابن هطال التلمساني، المصدر السابق، ص١٧.

^{٦١} ابن هطال التلمساني، المصدر سابق، ص١٨.

وجاء تعيينه في وقت كانت تعرف فيه الجزائر مجاعة كبيرة وانتشار مرض الطاعون منذ سنة ١٧٨٦م، وظل متقشياً حوالي ١٠ سنوات^{٦٢}. وبعد جلوسه على كرسي الحكم وتعيينه بابا، شرع في إصلاح الشؤون الرعية والسهر على مصالح العباد وتنظيم البلاد وكذلك نشر الأمن وفرض حكمه على قبائل المتمردة مثل قبيلة أولاد علي بن طلحة وقبيلة فليطة وكذلك حميان وعمورة والتي كانت تمارس اللصوصية وقطع الطريق على المسافرين، فانتصر على الجميع وأخضعهم للحكم التركي^{٦٣}.

٤.٢. **انجازاته العسكرية:** انقسمت انجازاته العسكرية عبر عدة مراحل نذكر منها **• المرحلة الأولى (١٧٨٠-١٧٨٧م):** كان البابي محمد ينظم غارات ضد الأسبان بوهران كل شهر رمضان من كل سنة، فيقابل بمدافعه حصون وأسوار وهران التي كانت تخلف القتلى والجرحى في صفوف جنوده^{٦٤}.

ويشير ابن سحنون الراشدي إلى أن البابي محمد الكبير شن حملتين على الأسبان، حملة الأولى شهدت عدة ضحايا من طرف الأسبانيين القتل والأسر يقول ابن سحنون الراشدي: "وبعث مرة قوما إلى جهاد ودفع ثيابا من أثواب النصارى القادمين إلينا، وأمرهم أن يكمنوا قرب البلد ويلبس بعضهم تلك الأثواب ويظهر للنصارى على هيئة نصارى هاربين من بلدهم إلينا ففعلوا ذلك، فلما رأوهم لم يشكوا أنهم فخرجوا في إثرهم، وخرج عليهم الكمين فقتلوا منهم جماعة وأسروا بعضهم، أما حملة الثانية فكان ضحيتها أحد المسلمين فارين إلى الأسبان رفقة امرأة كانت تصاحبه فأسكنوه خارج البلد تحت السور في بعض المغارات هناك، فقد أغري الضحية بعملية اصطحابه لبيع الثياب وقتلوه"^{٦٥}.

إن هذه الغارات والهجمات التي كان يقوم بها البابي وأعوانه أفلقت الأسبان مما جعلهم يشددون على الحراسة وبناء أسوار مدينة.

• الهدنة الأولى (١٧٨٥-١٧٨٧م): توقفت حرب الاستنزاف التي شنها محمد الكبير على الأسبان بوهران ١٧٨٥م استجابة لمساعي الصلح الأسبانية لدى قصر الداى محمد عثمان باشا، وبعد سنة كاملة تم التوقيع على معاهدة الصلح في جوان ١٧٨٦م.

• المرحلة الثانية (١٢٠١-١٢٠٤/١٧٨٧-١٧٩٠م): إن من بين العوامل التي ساعدت على الدخول في هذه المرحلة هو استغلال البابي محمد الكبير الهدنة الأولى في

^{٦٢} صالح عباد، المرجع سابق، ص ١٧٤.

^{٦٣} ابن هطال التلمساني، المصدر سابق، ص ١٨.

^{٦٤} بن عتو بلبروات، إستراتيجية البابي محمد الكبير فتح وهران والمرسى الكبير، مجلة الثقافة،

ع ٥٦، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، ٢٠١٠م، ص ٥٣.

^{٦٥} ابن سحنون راشدي، المصدر السابق، ص ٢٠٥.

سنة ١١٩٩هـ/١٧٨٥م مع الأسبان، وهذا لأجل الهجوم على قبائل الهضاب وفرض الاستقرار السياسي والعسكري في بابلج الغرب إضافة إلى داي الجزائر محمد عثمان باشا لم يعارض مشروع تحرير المدينة، كما وقعت مناوشات بين القبائل العربية والقبائل التابعة للأسبان بضواحي وهران، فاضطر الباي إلى تحديد حروبه مع الأسبان، فكل هذا ساعده من أجل تحرير المدينة^{٦٦}.

حيث قام الباي محمد الكبير خلال هذا الحصار بجمع القبائل الرباط حول ضواحي وهران يوميا إلى غاية تحقيق الفتح، ووقع اختياره على المدرسة المحمدية محمد بن عبد الله الجيلالي فعينه رئيسا للرباط وعين له مساعدين هما القاضي الطاهر بن حواء وكتابه، كاتب الباي محمد المصطفى بن زرقة الدحاوي متخذا في ذلك العديد من الإجراءات في أغلبيتها إغرائية كإسقاط المطالب المخزنية على المرابطين وتزويدهم بالعدة والخيول وتقسيم الغنائم عليهم، اعتمد الباي في حصاره لوهران على بعث السرايا ونصب الكمائن للعدو^{٦٧}.

وقد ذكر ابن سحنون الراشدي في قوله: "أن الأمير-أبد الله رفعته وخلد منعتة- لم يزل منذ ولي يتحيل على الظفر بالكفرة، وينصب لهم المكائد والخدع الشبيهة بالأشراك التي تنصب للكثير ليقبض، فتارة يوجه لهم المهرة بالسباحة في البحر فيبتون من قدروا عليه منهم في بيوتهم يأتونه برؤوسهم، وتارة يرصد لهم الكمين قرب أسوارهم حتى يظفروا بهم..."^{٦٨}.

في بداية شهر أوت سنة ١٧٩٠م بدأت هزات الأرضية الخفيفة ولكنها توقفت، وفي منتصف شهر سبتمبر على الواحدة من صباح يوم ٠٩ أكتوبر وقعت الهزات العنيفة التي خربت الجزء الأكبر من المباني والمنازل ونتاج عن هذا الزلزال اندلاع الحرائق في كل أماكن وفرار السجناء من سجونهم وكذلك مقتل عدد كبير من الجنود الأسبان^{٦٩}، وكان بينهم الحاكم العام الأسباني النيابة دون نيكولا غارسيا، والتهمت

^{٦٦} عبد القادر بلغيث، الحياة السياسية والاجتماعية بمدينة وهران خلال العهد العثماني، رسالة مقدمة لإتمام متطلبات الحصول على شهادة الماجستير في التاريخ والحضارة إسلامية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة وهران، ٢٠١٤م، ص ٢٩.

^{٦٧} كاميلية دغموش، قبائل الغرب الجزائري بين الاحتلال الأسباني والسلطة العثمانية (١٥٠٩م-١٧٩٢م)، رسالة مقدمة لإتمام متطلبات الحصول على شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة وهران، ٢٠١٤م، ص ١٥٣.

^{٦٨} ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص ٢٠٤.

^{٦٩} صالح عباد، المرجع السابق، ص ١٧٢.

النيران بعض السفن وأماكن أخرى^{٧٠}، وقد امتد تيار هذا الزلزال إلى مدينة معسكر إلا أنها لم تصب إلا بخسارة طفيفة جدا^{٧١}.

حيث كان هذا الزلزال فرصة مناسبة من أجل إعلان الحرب الشاملة، وبدأ محمد الكبير يهاجم المدينة التي لم يبق فيها سوى حوالي ١٥٢٨م جندي إسباني يدافعون عنها رغم الخسائر الكبيرة التي أحدثها الزلزال^{٧٢}.

• **المرحلة الثالثة:** كانت زلازل وهران حافزا استعجالي لمحمد الكبير، فتحرك من مدينة معسكر يوم الخميس في ١٣ من شهر صفر سنة ١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م بخمسة آلاف مقاتل متوجها إلى مدينة وهران بقصد فتحها^{٧٣}.

وبعد هجومات متوالية على أسوار المدينة قام بها جيش الباي في غضون أسبوعين، قرر الباي أن يبقى جيشه هناك محاصرا للبلاد بالغا منها في الدقة والتنظيم^{٧٤}، واستمرت الأعمال الطويلة القاسية طوال فصل الربيع والصيف سنة ١٧٩١م ونشوب المعارك بين الطرفين فقد كانت قوى الباي تتقدم رغم الدفاع الباسل للأسبان حتى ضاعت كل آمالهم^{٧٥}.

وبعد تراجع قوى الأسبان عن هذه المعارك قامت الحكومة الأسبانية بمفاوضات مع الداي الجزائر سنة ١٧٩١م، ورغم هذه المفاوضات إلا أن الحرب بقيت متواصلة بين الطرفين^{٧٦}، حيث قام محمد الكبير بالاتصال بالانجليز ليشتري منهم مدافع وقنابل وبالإضافة إلى استعانتهم بنجارين وحدادين وصناع النيران الصناعية الذين أتى بهم من ناحية فيقيق.

وعندما ورد هذا الخبر على الإسبانين شرعوا في المفاوضات مع الجزائر وطلبوا هدنة إلى غاية ٢٢ أفريل فاغتنم باي معسكر هذه الفرصة ليسير إلى مستغانم ويجلب منها المدفعية الثقيلة التي كانت موجودة بها إلى حصن سيق^{٧٧}.

رفض الأسبانين الاستسلام التام فعاد القتال بمبادرة من الطلبة، وفي ٠٣ رمضان/ ٠٧ ماي غادر الباي سيق متوجها إلى واد تليلات فزار الطلبة بإيفري ونظم فرقة مكونة من نخبة الجنود تضم ٥٠٠ جندي كلفهم بحماية الجنود الذين

^{٧٠} أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا (١٤٩٢م-١٧٩٢م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص ٥٢٤.

^{٧١} ابن هطال التلمساني، المصدر السابق، ص ٢١.

^{٧٢} عبد القادر بلغيث، المرجع السابق، ص ٣٠.

^{٧٣} ابن هطال التلمساني، المصدر السابق، ص ٢١.

^{٧٤} نفسه، ص ٢١.

^{٧٥} أحمد توفيق المدني، المرجع سابق، ص ٢١.

^{٧٦} عبد القادر بلغيث، المرجع سابق، ص ٣٢.

^{٧٧} رشيد بورية، وهران فن وثقافة، منشورات وزارة الإعلام، الجزائر، ١٩٨٣م، ص ١٠٨.

يضعون الألغام، ثم في ٥ شوال/٨ جوان استطاع الأتراك أن يخربوا أسوار برج سانتا كروز ولكن المعسكر واصل المقاومة وبعد تسعة أيام نظم محمد الكبير مدفعيته في السهل وتمركز عثمان بين الطريق التي تؤدي إلى إيفري ومحلة أبيه^{٧٨}.

وفي أواخر شهر أوت ١٧٩١م وبعد سلسلة من المفاوضات بين الداي الجزائر والملك الأسباني اختار نهائيا تسليم البلاد المحتلة على الصورة التي تركها المسلمون سنة ١٧٣٢م، وانتهت بعقد الصلح بين الطرفين في جويلية ١٧٩١م بعد وفاة عثمان باشا الذي خلفه الداي حسان باشا أين قبل بعقد الصلح مع إسبانيا بشروط منها:

- تنسحب إسبانيا من وهران والمرسى الكبير دون قيد أو شرط.
- تدفع إسبانيا لخزينة الجزائر سنويا مقدار ١٢٠٠٠٠ فرنك وهو ما يعادل ٢٤٠٠٠٠ دينار جزائري.
- ترجع إسبانيا للجزائر كل القنابل والمدافع والذخيرة التي غنمتها عند استرجاعها لوهران والمرسى الكبير.
- حمل سفينة إسبانية بصفة رسمية إلى اسطنبول مفتاحين ذهبيين رمزا للاستسلام، إضافة إلى جرتين من ماء عيون وهران إلى الخليفة والسلطان العثماني كبرى بالفتح وتأكيد له للرابطة مع دولة الخلافة^{٧٩}.

خاتمة:

لقد كان للباي محمد بن عثمان الكبير الدور الأهم في عمران وعمارة حواضر بايلك الغرب الجزائري وحتى البوادي والأرياف، وامتدت إنجازاته لتشمل الجانب الثقافي بتشجيع الحركة العلمية والجانب العسكري القائم على فرض نظام السلطة الحاكمة. مما يمكن التوصل إليه من نتائج استنادا إلى ما جاء في المقال هو:

- عرف بايلك الغرب عامة وحاضرة معسكر خاصة أواخر القرن الثامن عشر الميلادي خلال حكم الباي محمد بن عثمان ببرز علماء أعلام وفضلاء كرام، تميزوا بسعة الإطلاع في شتى أصناف المعرفة من فقه وعلوم القرآن والحديث والتاريخ وعلم الأنساب والنحو والأدب وغيرها، نظير ما وفره هذا الباي من ظروف ملائمة لذلك.
- انتشرت خلال فترة حكم الباي محمد بن عثمان الكبير العديد من المصنفات، المسيرة لأحداث العصر.
- لم يكن الباي محمد الكبير منعزلا عن قضايا عصره فقد ساهم في إثارة حماسه وعسكروا وطلبة المساجد فكانوا في طليعة فاتحي وهران، والذي تحقق على يديه.

^{٧٨} نفسه، ص ١٠٩.

^{٧٩} أحمد توفيق المدني، المرجع سابق، ص ٥٢٦.

- إنَّ سيرة هذا الباي المجاهد في سبيل وسعة إطلاعه وكثرة دعمه للعلماء والفقهاء تجعلنا نفنّد الأطروحات التي جاء بها دعاة المدرسة الفرنسية الذين اعتبروا الفترة العثمانية فترة غامضة من تاريخ الجزائر تميّزت بالجمود والتقليد أو كما سمّاها شارل فيرو "بربرية ثقافية"، عكس ما تميّز به بايلك الغرب خلال فترة حكم هذا الباي من تأليف وإنشاء للمؤسسات الدينية والتعليمية.

البيبليوغرافيا:

١. ابن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تح: البوعبدلي المهدي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠١٣م.
٢. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨م.
٣. أحمد ابن هطال التلمساني، رحلة محمد الكبير باي الغرب إلى الجنوب الصحراوي ١٧٨٥، تق: محمد عبد الكريم، المؤسسة العربية للدراسات النشر.
٤. أحمد الشريف الزهار، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشرف الجزائر، تر: أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للتوزيع، الجزائر، ١٩٧٤م.
٥. أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا (١٤٩٢م-١٧٩٢م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
٦. أحمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا داي الجزائر ١٧٦٦/١٧٩١: سيرته وحروبه وأعماله ونظام الدولة والحياة العامة في عهده، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٦م.
٧. أممية عميراي، الجزائر في الأدبيات الرحالة والأسر من خلال العهد العثماني: مذكرات الأسير تيدنا، دار الهدى، الجزائر، ٢٠٠٣م.
٨. أممية عميراي، قضايا مختصرة في تاريخ الجزائر الحديث، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، ٢٠٠٥م.
٩. الأغا ابن عودة المزارى، سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تح: يحي بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
١٠. بصحراوي محمد وبوسوار مليكة، الباي محمد الكبير ودوره في بايلك الغرب الجزائري ١٧٧٩/١٧٩٧، مذكرة مقدمة لإتمام متطلبات الحصول على شهادة الماستر في التاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، قسم العلوم الإنسانية، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية، جامعة ابن خلدون، تيارت، ٢٠١٦م.
١١. بلبروات عتو، الباي محمد الكبير باي وهران ١٧٧٩/١٧٩٧: حياته وسيرته، مجلة عصور، مج ٠٢، ع ٠٣، جوان ٢٠٠٣م، صص ١٥١-١٥٨.
١٢. بن عتو بلبروات، إستراتيجية الباي محمد الكبير فتح وهران والمرسى الكبير، مجلة الثقافة، ع ٠٦، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، ٢٠١٠م.
١٣. تومة نعناعة، عمارة المساجد العثمانية في بايلك الغرب بين استمرار الطرز المحلية ومظاهر الانفتاح على الطرز الوافدة، ٢٠١٩، مجلة قيس للدراسات الإنسانية والاجتماعية، مج ٠٣، ع ٠١، ٢٠١٩م، صص ١١٥-١٣٦.

١٤. حبيبة بوشارب، محمد الكبير باي الغرب الجزائري (١١٩٣هـ-١٢١١هـ/١٧٧٩م-١٧٩٧م)، مذكرة مقدمة لإتمام متطلبات الحصول على شهادة الماستر في التاريخ الجزائر الحديث، قسم التاريخ، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية، جامعة المسيلة، ٢٠١٩م.
١٥. خيرة بن بلّة، المنشآت الدينية بالجزائر خلال العهد العثماني، أطروحة مقدمة لإتمام متطلبات الحصول على درجة الدكتوراه في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، ٢٠٠٨م.
١٦. رشيد بوربيّة، وهران فن وثقافة، منشورات وزارة الإعلام، الجزائر، ١٩٨٣م.
١٧. صبرينة أمير وحرورية زاير، المشروع الجهادي للبابي محمد الكبير في تحرير وهران ١٧٩٢م، مذكرة مقدمة لإتمام متطلبات الحصول على شهادة الماستر في التاريخ الجزائر الحديث، قسم التاريخ، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية، جامعة البويرة، ٢٠١٩م.
١٨. عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، دار الأمة للطباعة والنشر، الجزائر، ٢٠١١م.
١٩. عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ المدن الثلاث (الجزائر-المدينة-مليانة)، ط١، شركة دار الأمة، الجزائر، ٢٠٠٧م.
٢٠. عبد القادر بلغيث، الحياة السياسية والاجتماعية بمدينة وهران خلال العهد العثماني، رسالة مقدمة لإتمام متطلبات الحصول على شهادة الماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة وهران، ٢٠١٤م.
٢١. قدور بوجلّال، المنشآت التعليمية بمعسكر في عهد البابي محمد بن عثمان الكبير، مجلة دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج١٧، ع٠٢٤، ٢٠١٧م، ص-ص٢٦٧-٢٣٥.
٢٢. كاميلية دغموش، قبائل الغرب الجزائري بين الاحتلال الأسباني والسلطة العثمانية (١٥٠٩م-١٧٩٢م)، رسالة مقدمة لإتمام متطلبات الحصول على شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة وهران، ٢٠١٤م.
٢٣. مبارك ابن محمد الميلي، تاريخ الجزائر الحديث والقديم، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، ١٩٦٤م.
٢٤. مبروك مهيريس، المساجد العثمانية بوهران ومعسكر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ٢٠٠٩م.

٢٥. محمد الأمين شرويك، جهود محمد الكبير وصالح باي في تشجيع حركة الثقافة والتعليم في الجزائر العثمانية على ضوء المصادر المحلية والأجنبية، مجلة العلوم الإسلامية والحضارة، مج ٠٣، ع ٠٢٤، ٢٠١٨م، ص-ص ٥٦٥-٥٨٤.
٢٦. محمد بن يوسف الزباني، دليل الحبران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تح: البوعبدلي المهدي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ٢٠١٣م.
٢٧. محمد مقصودة، الكراغلة والسلطة في الجزائر خلال العهد العثماني ١٥١٩م-١٨٣٠م، رسالة مقدمة لإتمام متطلبات الحصول على شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة وهران، ٢٠١٤م.